الشعر والمسرح

يسمى عهد الملكة اليصابات أحيانًا بعصر الغناء أو بالعصر المغني، ويصدق عليه هذا الوصف لأنه العهد الذى وجد فيه روح العصر أغنيته التى تناسبه من منبعه الذى انبثقت منه دعوة الإنسانيين وما يتصل بها من الدعوة إلى إحياء العلوم والفنون.

فليس عهد الملكة اليصابات بالعهد الذى ولدت فيه المنظومة الغنائية كما لا يخفى، ولا هو - على كثرة الأغانى فيه - بالعهد الذى يفوق العهود التى سبقته كثرة فى أنواع النشيد، لأن تلك العهود لم تخل من أنواع للأناشيد يتغنى بها العامة أو الخاصة ويشيدون فيها بأبطال الأساطير أو كرامات القديسين أو أحاديث العشاق على ضروب شتى من الأوزان والأساليب.

ولكن عهد اليصابات كان فى إنجلترا أول عهد راجت فيه «الموشحة» الإيطالية كما نظمها بترارك أكبر الشعراء الإنسانيين، ونترجم هذا الضرب من الأغانى **Sonnet** بالموشحة، وقد يترجم بالزجل لتشابه الموشحة والزجل فى القوافى والأغصان والنوبات والخرجات والأقفال على اصطلاح الوشاحين والزجالين، غير أن الموشحة أقرب دلالة من الزجل؛ لأنها وضِعت فى الأصل للمنظومة التى تتكرر فيها القوافى اثنتين اثنتين تشبيهًا لها بالعقد الموشح

ذى السمطين، وهذا هو الغالب على أغنية عهد اليصابات كما اقتبسها الشعراء الإنجليز.

وقد اقتبس هذا الوزن من الإيطالية شاعران شابان هما توماس ويات Wyatt (١٥٠٣ -١٥٤٢م) وهنرى هوارد (١٥١٧ - ١٥٤٧م) فنقل أولهما طريقة بترارك بغير تصرف فيها واتبع زميله هذه الطريقة ببعض التصرف في ترجمة شعر فرجيل، ثم شاعت هذه الأغانى الجديدة ونظم فيها سياسى من حاشية اليصابات هو الوزير الأديب سير فيليب سدنى كما نظم فيها بعده شكسبير وغيره من معاصريه.

ولما نهض التأليف المسرحى نظمًا ونثرًا فى اللغة الإنجليزية بقيت له، بطبيعة الحال، صبغته الواقعية الحسية التى استمدها من البيئة والتاريخ، وبقيت له معها صبغته الدينية الأخلاقية التى استمدها من تقاليد القرون الوسطى وعرف الفروسية، ولكنه احتفظ من ناحيته الفنية بصبغة الدعوة التى ابتعثته من غيابة النسيان فاتخذ قدوته وقالبه من فن روما القديمة، وتداول المعنيون بالمسرح روايات أديبين من مؤلفى التمثيليات كان لهما حظ الشهرة إلى عصر الميلاد فى اللغة اللاتينية السهلة ولغة اللهجة الدارجة التى كانت تستخدم يومئذ فى كتابة الملاهى والفكاهات على الخصوص، فانبعث اسم بلوتوس Plautus (٢٥٤ - ١٨٤ ق.م) واسم سينكا (٤ - ٦٥م) كأنهما من مؤلفى الجيل.

وكانت اللاتينية بلهجاتها أعم اللغتين القديمتين بين الإنجليز، لأنها لغة الدولة الرومانية التى كانت إنجلترا جزءا منها فى بعض تاريخها، ولأنها لغة الكنيسة الغربية التى تبعتها الأمة الإنجليزية إلى أن حدث الانقسام بينها وبين البابا فى عهد هنرى الثامن أبى الملكة اليصابات. بيد أن اللغة الإغريقية لم تكن مجهولة بين الإنسانيين لأنهم فى جملتهم من زمرة المثقفين أو طبقة العلية التى توسعت فى دراسة الإغريقية وآدابها بالجامعات ونظرت إلى ثقافتها كأنها حلية لا غنى عنها من شمائل الرفعة والجاه.

ومن الواضح أن حركة الإنسانيين لا تقوم فى مبدئها بمعزل عن أنصار المعرفة وأنصار الإقبال على الحياة، فهى فى بواعثها ووسائلها حركة من حركات العلم واليسار، ويكفى أن نُلِمَّ بأسماء بعض القائمين عليها لنعلم أنها رسالة المعرفة فى عصر الفتح والإقدام والتطلع إلى المستقبل على ثقة ورجاء، فقد كان الشابان اللذان نقلا الموشحة من أرفع طبقات النبلاء المثقفين، وكان رائدهما الأول - سير فيليب سدنى - وزيرًا من كبار وزراء المملكة، وعناه من أجل هذا أن يكتب رسالته المشهورة فى الدفاع عن صناعة القريض، وكان مما قاله فيها: إن اسم الشاعر باللغة اللاتينية كفيل أن يدل على قداستها فى نظر الأقدمين؛ لأنه اسم يشير إلى الإلهام والنظر أو النبوءة، وقريب منه فى جلالة شأنه اسم الشاعر باللغة الإغريقية؛ لأنه يفيد معنى الصانع ويشبه معنى الخلق فى

مجاراة الطبيعة والتفوق عليها، واستطرد من الكلام على الشعر فى اللاتينية والإغريقية إلى الكلام على الشعر المقدس فى العبرية، فذكر منه المزامير، وقال إنها من الكلام الموزون، فلا يجوز الغض من صناعة تختارها لغات الحضارة والعقيدة للتعبير عن أشرف المقاصد وأرفع الأفكار.

ولولا قوة الإنسانيين فى المجتمع الحديث لما تسنى لسلطان الدولة برمتها أن يعزز الدعوة إلى إحياء الفنون والعلوم والإقبال على الحياة فى وجه الجامدين المتعصبين للتقاليد بين شعب مشهور بالمحافظة عليها والتريث فى تبديلها، أو فى وجه المجددين الذين أرادوا التجديد فى شعائر الدين سخطًا على رذائل البذخ والفساد التى استرسل فيها فريق من أقطاب الدين قبيل عصر النهضة وفى إبان ذلك العصر المتناقض العجيب.

ولقد كاد مجلس المدينة يتمرد على أوامر الملكة لما أُذنت للممثلين أن يعرضوا صناعتهم داخل أسوار العاصمة، فإن التمثيل كان عند المحافظين المتشددين محسوبًا من صناعات الخلاعة والابتذال، وكان الممثلون يُسلَكون فى عداد الأفاقين والشُطَّار واللصوص، ويطاردهم الشرطة ما لم تكن فى أيديهم شهادة بالانتماء إلى أحد النبلاء وذوى الأقدار يقبلهم للتمثيل فى قصره بين خاصته وذويه، وظل الحال كذلك إلى ما قبل نهاية القرن السادس عشر بقليل، ولعل المحافظين لم ينكروا تلك الصناعة اعتسافًا فى أيام المتطهرين وما قبلها،

لأن التمثيــل إنما كان نوعًا من أنواع التهريج والشــعوذة والألعاب البهلوانية قبل أن تســتقل الرواية المهذبة بفن المسرح بزمن طويل، وكان المشــتغلون به يرودون المدن والقرى متنقلين فى الفرق الجوالة ولا تؤمن طائلتهم إذا سنحت لهم غرة من سكان الحضر والريف.

علــى أن المثقفين من دعاة الإحياء والإقبــال على الحياة لم يكن فى طاقتهم أن ينهضوا بهذا الفن لو كان قصارى الأمر فيه أنه دعوة من دعوات المعرفة والذوق تروجها فئة من الســادة والعلماء. وإنما نجحــوا فى دعوتهم لأنهــا صادفت رغبة قوية بين ســكان مدينة تمتلئ عامًا بعد عام بألوف الوافدين من أنحاء المملكة فى طلب العمل واللهو الجديد، ويكاد أن ينحصر فى فن التمثيل وأن يكون فى هذا الفن تلبية لشــوق الوطن كله إلى تمثيل مفاخر القوم وتصويرها على المسرح فى صور المجد والبطولة، وكان هذا الباب من أبواب الرواية المســرحية فنًّا تمليه رغبة الجمهرة الغالبة من العامة والســواد، إذ لم يكــن معهودًا فــى روايات الإغريق والرومــان، ولم يكن مما يشــتغل به هواة الفن فى الجامعات والقصور، وهم الذين اشتهروا يومئذ باســم أذكياء الجامعة University wits وعالجوا التمثيل كما عالجوا التأليف.

ويصــح أن يقــال إن العليــة والســواد معًا كانوا يــدًا واحدة فى تشــجيع هذا الفن الجديد، وإن معارضيه من المتطهرين لم يخذلوه بمعارضتهم، بل أضافوا إلى لذَّات الإقبال عليه لذة الثمرة المحرمة التى لا تباح كل الإباحة ولا تحرم كل التحريم.